

النزعة الجنينية» مصطلح قمنا بصياغته لنصف نزعة نتصور أنها أصلية كامنة في النفس البشرية، وهي نزعة لرفض كل الحدود وإزالة المسافة التي تفصل بين الإنسان وما حوله حتى يصبح كائناً لا حدود له. يجد الإنسان نفسه جزءاً من كل أكبر منه يحتويه ويشمله. رغبة في التخلص من تركيبية الذات الإنسانية وتعيّنها ومن عبء الخصوصية والوعي الإنساني، وهي محاولة للهروب من الواقع الإنساني بكل ما فيه من ثنائيات وتدافع، لا يفصله فاصل مادي أو معنوي عن رحم أمه ولا توجد مسافة أو حيز تفصل بينهما، حين كان يتصور أنه لا يزال جنيناً في الرحم لا يفصله فاصل مادي أو معنوي عن أمه وأنه جزء لا يتجزأ منها، وحينما يمسك بثديها يتصور أنه قد تحكّم في العالم بأسره وأنه قد تواصل مع العالم كله، هذه الحالة الجنينية الرحمية حالة دائرة عضوية مطلقة مصممة لا تتخللها أية مسافات (واحدية عضوية) لا تختلف كثيراً عن حالة وحدة الوجود حين يحل المبدأ الواحد في الإنسان والطبيعة ويمتزج بهما تماماً، ولهذا تعبّر الحالة الجنينية عن نفسها من خلال مفردات الحلولية الكمونية (الجنس - الرحم - ثدي الأم - الأرض) ومن خلال الصور المجازية العضوية حيث يصبح الجزء جزءاً عضوياً لا يتجزأ من الكل. وهي حالة من التأيقن الكامل حيث يتحد الدال والمدلول، وتذوب الجواهر الفردية في جوهر كوني واحد، الواحدية الذاتية والموضوعية والثنائية الصلبة: نمط جيني عام تعبّر النزعة الجنينية عن نفسها من خلال نمط أساسي هو نمط التآرجح بين الواحدية الذاتية والموضوعية والثنائية الصلبة، وبين الصلابة والسيولة الشاملة: 1 - الواحدية الذاتية: يدور الإنسان في الحالة الجنينية في إطار المرجعية الكامنة، ومن ثم فالإنسان في الحالة الجنينية يعيش في عالم الحواس بشكل مباشر. وهو يتصور أنه قادراً على أن يتحكم في كل شيء وأن يبتلع كل شيء حتى يصبح كل شيء جزءاً لا يتجزأ منه، فهو متمركز حول ذاته، تسود في عالمه الواحدية الذاتية (والإنسانية الهيومانية والإمبريالية). في هذا الإطار تظهر الواحدية الإمبريالية ثم يظهر ما يمكن أن نسميه «الإباحية المعرفية». تسقط الحدود الوجودية (نسبة إلى الوجود) والمعرفية والأخلاقية فلا حرام ولا حلال، تماماً كما كان يفعل مع ثدي أمه أو في رحمها. وهو انطلاقاً من هذا يعامل الآخر خارج أي إطار اجتماعي، فإن كان من الجنس الآخر فهو يستهلكه لتحقيق اللذة (دون أي التزام تجاه الأطفال، فهو شخصية إمبريالية توسعية كاملة، 2 - الثنائية الصلبة: ولكن رغم هذا الإحساس بالواحدية الذاتية، وقد ترفض الذات المتمركزة حول نفسها أن تتفاعل مع الموضوع، فتظهر حالة أولية من الاستقطاب والثنائية الصلبة (الواحدية الذاتية مقابل الواحدية الموضوعية المادية). إذ تتفكك الذات تدريجياً وتتركز مركزية الموضوع فتذوب فيه وتختفي الواحدية الذاتية لتهيمن الواحدية الموضوعية أو الواحدية الطبيعية/المادية أو الواحدية الصلبة. فيذوب الجوهر الإنساني ويمتزج بالكل الموضوعي، ومن ثم تتحول الذات الإمبريالية المكتفية بذاتها إلى جزء من كل وتُرد في كليتها إلى ما هو خارجها تماماً، وهكذا تختفي الواحدية الذاتية التي نجمت عنها ازدواجية الذات والموضوع، واختفى الجزء وذاب ليظهر الكل (الرحم - الطبيعة - الإله)، أو أية تنويعات عليه (مثل: الفولك - الدولة - الليبدو - الحتمية التاريخية - البقاء المادي) حيث تتمركز الذات حول الموضوع، ورغم الاختلاف الظاهر بين التمرکز حول الذات والتمرکز حول الموضوع فإنهما يؤديان إلى النتيجة نفسها: إنكار الثنائية والتركيب وإمكانية التجاوز واختفاء الذات الإنسانية، فهذه الحدود هي التي تخلق لها حيزاً إنسانياً اجتماعياً تاريخياً يمكنها أن تتحرك فيه بقدر من الحرية، ووعياها الإنساني ككيان مستقل حر، يتفاعل مع العالم ويتجاوزه دون أن ينكره، 4 - الواحدية السائلة: الحالة الجنينية سواء في تمركزها حول الذات أو تمركزها حول الموضوع هي حالة صلبة، ولكن ثمة مرحلة جنينية ثالثة هي حالة من السيولة الشاملة والنسبية المطلقة. وإذا كانت الحالة الجنينية في المراحل الأولى تعني إنكار الحدود تماماً والمسافة والحيز الإنساني، فإنها في المرحلة الأخيرة تعني تقبّل المسافة باعتبارها أمراً قائماً ونهائياً. ولكن المسافة هنا هوة (أبوريا) لا يمكن اجتيازها إذ يختفي مفهوم الإنسانية المشتركة. فرغم اختفاء الرحم الكوني الأكبر ورغم انشطار الجنين الكوني إلى عدة أجنة واختفاء التجسّد الكوني الأعظم، فيذوب بطبيعة الحال فيما حوله. وفي حالة المراحل الأولى (الصلبة) تعبّر الحالة الجنينية عن نفسها على هيئة التأيقن والتحام الدال بالمدلول. ولكن في المرحلة السائلة ينفصل الدال عن المدلول ويبدأ رقص الدوال. وهي أن تتساوى كل النصوص وتتداخل ويحيل كل نص إلى نص آخر وتحيل كل كلمة إلى كلمة أخرى. ولعل من أهمها نموذج العلمانية الشاملة الذي يمثل انتصاراً للحالة الجنينية (فالإنسان الطبيعي/المادي هو تجسّد للحالة الجنينية). ويمكن القول بأن كثيراً من النزعات المرتبطة بالعلمانية الشاملة مثل النزعة التعاقدية والرغبة في التحكم التكنولوجي والحلم باليوتوبيا التكنولوجية ونهاية التاريخ والإيمان بوحدة (أي واحدية) العلوم بحيث يسري قانون واحد طبيعي/مادي على كل من الإنسان والحيوان والجماد، وإذا كانت الفلسفة الهيجيلية بواحديتها وعضويتها هي تعبير عن الحالة الجنينية في حالة الصلابة الأولى فإن فلسفة نيتشه هي تعبير عن حالة السيولة. وما بعد الحداثة هو انتصار حالة الجنينية الواحدية السائلة. هو وصف لعالم الحالة الجنينية في حالة السيولة الشاملة. وإذا كان النظام

الاستعماري القديم تعبيراً عن النزعة الجينية الغربية في مرحلة الصلابة، ونحن نذهب إلى أن الإنسان تتنازع نزعان كامتان فيه: النزعة الجينية والنزعة الربانية. ومفهوم الطبيعة مفهوم أساسي في الفلسفات المادية التي تدور في إطار المرجعية الكامنة، وإنما هي كيان يتسم ببعض الصفات الأساسية التي يمكن تلخيصها فيما يلي: 1 - تتسم الطبيعة بالوحدة، وهي الكل المتصل وما عداها مجرد جزء ناقص منها، فهي لا تتحمل وجود أية مسافات أو ثغرات أو ثنائيات. وجماع الأشياء والإجراءات التي توجد في الزمان والمكان هو الطبيعة، 2 - تتسم الطبيعة بالقانونية (لكل ظاهرة سبب وكل سبب يؤدي إلى نفس النتيجة في كل زمان ومكان)، قوانين رياضية عامة واضحة، وهي قوانين كامنة فيها. ولا تمنح الإنسان أية مكانة خاصة في الكون، أي أن الطبيعة تلغي تماماً الحيز الإنساني. 5 - الإيمان بأنه لا توجد غيبات ولا يوجد تجاوز للنظام الطبيعي من أي نوع، توجد في ذاتها، لا يشير إلى أي هدف أو غرض خارجي، وهو نظام ضروري كلي شامل تنضوي كل الأشياء تحته، ولذا، فنحن نرى أن كلمة «المادة» يجب أن تحل محل كلمة «الطبيعة» أو أن تُضاف الواحدة للأخرى، وذلك لفك شفرة الخطاب الفلسفي الذي يستند إلى فكرة الطبيعة، ولعل كثيراً من اللغظ الفلسفي ينكشف إذا استخدمنا كلمة «مادي» بدلاً من كلمة «طبيعي»، في واقع الأمر، شخص يُعرّف في إطار وظائفه الطبيعية البيولوجية ويعيش حسب قوانين الحركة المادية ويُردُّ إليها، ولذا فهو يجمع براءة الذئاب وتلقائية الأفعى وحياد العاصفة وتسطُّح الأشياء وبساطتها. وحينما نقول «العودة للطبيعة»، أي قوانين المادة. «المادية» هي المصدر الصناعي من كلمة «المادة»، وهي لا علاقة لها بجمع المال أو بالإقبال على الدنيا كما قد يتوهم البعض. ويمكن للإنسان المادي المغالي في ماديته أن يكون زاهداً تماماً في النقود والدنيا (كما هو الحال مع إنجلز وإسبينوزا). ويمكن القول بأن كل الفلسفات إما مادية أو غير مادية، ولا يمكن تجزيء هاتين المقولتين إلى ما هو أصغر منهما. كما أنها ترفض الإنسان نفسه، ولذا، فإن الفلسفة المادية تُردُّ كل شيء في العالم (الإنسان والطبيعة) إلى مبدأ مادي واحد هو القوة الدافعة للمادة والسارية في الأجسام والكامنة فيها والتي تتخلل ثناياها وتضبط وجودها. وهي النظام الضروري والكلي للأشياء؛ نظام ليس فوق الطبيعة وحسب ولكنه فوق الإنسان أيضاً. وإن دخل عنصر غير مادي على هذا المبدأ الواحد، فإن الفلسفة تصبح غير مادية. وكلمة «مادة» قد تبدو لأول وهلة وكأنها كلمة واضحة، ومع هذا، إلخ. والصفات المادية هي الصفات التي يتعامل معها علم الطبيعة (الفيزياء)، أي أن المادي ليس له أية سمة من السمات التي تُميز الإنسان كإنسان. ويمكن القول بأن الأطروحات الأساسية للفلسفة المادية هي ما يلي: فهي لا تفنى ولا تُستحدث من العدم. وهي الأصل الراسخ لكل الموجودات، وهي الجوهر الواحد والمبدأ الوحيد الأول والأخير الذي تُردُّ إليه جميع ظواهر الحياة المادية والإنسانية والحوادث التاريخية. وطبيعة كل شيء وخصائصه إنما هي نتيجة تركيب لبعض ذرات هذه المادة تم بشكل آلي ومن تلقاء نفسه من خلال الحركة الأزلية للمادة. فهي ظواهر تابعة (بالإنجليزية: إبي فينومنون epiphenomenon) ناتجة عن ذلك الجوهر. أما الكيفي فهو ظاهري. فالمادة والحركة لهما وحدتهما وجود وحقيقة نهائية. مهما اختلف مجاله، وكل الظواهر تتغير وتختفي وتذوب في مادة كونية أزلية. والتطور، هو نتيجة تطور متصل في القوى المادية، ولا علاقة له بالقيم أو الغائية الإنسانية. ليس للعقل أية فعالية سببية، ووجوده ليس ضرورياً لاستمرار حركة المادة في العالم. وتُقر نظرية المعرفة المادية (في مراحلها الأولى) بإمكانية قيام المعرفة، بل إن مادية العالم هي شرط لمعرفته. ولمعرفة هذا العالم، لا يحتاج الإنسان إلى استعارة وسائل من خارج عالم الطبيعة/المادة؛ وفي بعض أشكال المادية، فكل ما هو موجود قابل لأن يُعرّف، أما التساؤلات الميتافيزيقية فهي ليست موجودة أو ليست موضوعاً للمعرفة. والمادة لا تسبق العقل وحسب وإنما تسبق كل ما هو إنساني، فمنطق الحاجة الطبيعية المباشرة هو الذي يتحكم في الأخلاق الإنسانية تماماً مثلما تتحكم الجاذبية في سقوط التفاحة. ولذا، تنادي المذاهب الأخلاقية المادية بأن الشيء الوحيد الذي يجدر بالإنسان أن يسعى إليه هو الخيرات المادية التي تجود بها الحياة. وثمة قيم أخرى في النظام المادي، ولكنها قيم مادية مثل البقاء والنمو والحركة. فهي تصبح بالتالي الآلية الأخلاقية المادية الكبرى. والشيء نفسه ينطبق على المعايير الجمالية، فهي مجرد تعبير عن شيء مادي يُوجد في الواقع المادي. والمادة تسبق التاريخ، ولذلك فإن كل تطوّر (اجتماعي وتاريخي) يتوقف على الظروف المادية والاقتصادية (على سبيل المثال: تطوّر أدوات الإنتاج وعلاقات الإنتاج والمصلحة الاقتصادية). كلها أمور مادية. في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير، وما لا يُردُّ إلى المادة لا وجود له، وقبول وجوده هو سقوط في الميتافيزيقا والغيبية والجهالة. وهي فلسفات حلولية كمونية واحدية مادية تُردُّ كل شيء إلى الطبيعة/المادة وتنكر وجود قانونين أحدهما يسري على الطبيعة/المادة ويسري الآخر على الطبيعة البشرية. الإنسان والأشياء (وهذا هو أساس فكرة وحدة أو واحدية العلوم). الإنسان الطبيعي (المادي) «الإنسان الطبيعي» هو «الإنسان الطبيعي/المادي»، أي الإنسان الذي يدور في إطار المرجعية الكامنة في المادة، يعيش بالطبيعة/المادة وعلى الطبيعة/المادة. والإنسان الطبيعي/المادي تعبير متبلور عن النزعة

الجينية وعن اختفاء النزعة الربانية، ولذا نجد نفس النمط الذي تتسم به النزعة الجينية يعبر عن نفسه من خلاله: التآرجح بين الواحدة والثنائية وبين الصلابة والسيولة: فهو مكتف بذاته، ومعيارية ذاته، فهو سوبرمان حقيقي. حدودها حدوده، فضاؤها فضاؤه، أي أن الحيز الإنساني يختفي تماماً. 3 - هذا يعني أن الإنسان خاضع تماماً لقوانين الطبيعة الكامنة في المادة تحركه أينما شاءت لا يمكنه الفكك من حتمياتها، يُرد في كليته إلى النظام الطبيعي/المادي، ودوافعه الغريزية المادية (الرغبة في البقاء المادي - القوة والضعف - الرغبة في الثروة)، وإنما هو جوهر طبيعي/مادي، فالإنسان لا يختلف، ولذا فالإنسان، في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير، الطبيعة/المادة وقوانينها. 2 - الإنسان الطبيعي، جزء من النظام الطبيعي، وهو نظام واحد صارم لا يعرف الثنائيات أو التركيب وليس بإمكان كائن تجاوزه، ولذا فالإنسان الطبيعي إنسان أحادي البعد (إنسان وظيفي) سلوكه يتبع نسقاً منطقياً واضحاً يمكن التنبؤ به. 3 - لأن الطبيعة يمكن أن توجد دون الإنسان فيمكن القول بأنه لا يشكل المركز في الكون، وينبغي عليه أن يزعم لقوانينها وألا يحاول تجاؤها. ذاتي الحركة والتنظيم. بل يلاحظ أن الحيوانات العليا تشترك مع الإنسان (الطبيعي) في درجات من الذكاء ووسيلة من وسائل الاتصال والتنظيم الاجتماعي وأشكال من الاقتصاد، ولكنها جميعاً تتسم بالبساطة والمنطقية البالغة. واللغة والذكاء، كلها حالات ولحظات من التطور تبقى بطبيعتها في إطارها الحيواني. والإنسان، فلا بد أنه فعل شيئاً مهماً جداً ولكنه ليس جديداً كل الجدة، ذلك لأن آباءه الأوائل من فصيلته الحيوانية حاولوا فعل الشيء نفسه. من هذا المنظور يمكن القول بأن عقل الإنسان ليس له أية فعالية، 5 - الإنسان الطبيعي/المادي، شأنه شأن كل الكائنات الطبيعية لا يعرف القلق أو التفكير في المجهول ولا يفكر في مصيره ولا في مصير الكون، ولا تعكر صفوه أية أسئلة معرفية، نهائية وكلية كبرى، فأُسئلته كلها أسئلة عملية مادية محصورة بالبيئة والاحتياجات المادية المباشرة. وعقل كل من الإنسان (الطبيعي) والحيوان صفحة بيضاء تُسجل عليها الأحاسيس المادية، فما يحركه هو أخلاقيات طبيعية/مادية برانية تستند إلى المنفعة والمصلحة والرغبة في البقاء الكامنة في المادة. وهذا وهم. 7 - الطبيعة البشرية، شأنها شأن الطبيعة المادية، في حالة حركة دائمة وتغيّر دائم، ولذا لا توجد إنسانية مشتركة، فمثل هذه المعايير خاضعة لقوانين الحركة. وتصدر الفلسفات المادية عن الإيمان بأسبقية الطبيعة/المادة على الإنسان ولذا فهي تركز على الإنسان الطبيعي والجوانب الطبيعية/المادية من الوجود الإنساني، ولذا، فنحن نربط بين الإنسان الطبيعي والنزعة الجينية التي تعفي الإنسان من عبء الهوية والمسئولية والاختيار وتُدور في إطار الواحدة المادية. والعلوم الإنسانية في الغرب، وكذلك النماذج التحليلية السائدة فيها، ولذا فهي تنظر إلى الإنسان باعتباره مجموعة من الوظائف البيولوجية والحقائق المادية، فالإنسان مجرد نظام طبيعي كغيره من النظم الطبيعية ويخضع بدوره للقواعد الحتمية الصلبة للطبيعة، وحتى في تطوره، فكلاهما مجرد وظائف بيولوجية، وكلاهما نتاج لبيئته وعمله ولمحاولة البقاء من خلال الصراع والتكيف. وتطوّر الإنسان الطبيعي، داخل نسق بسيط مستمر منطقي، إنه مجرد نتاج حقائق [مادية] معينة". وبالتالي فليس هناك جوهر إنساني). وإنسان نيتشه، نتاج عملية التطور هذه، فهو في جوهره حيوان كامل خاضع تماماً لقوانين التطور الطبيعية. التي تُدار على أسس علمية/مادية، كالإنسان الآلي المغسول في الرشد المادي من قمة رأسه إلى أخمص قدمه؛ فكل شيء قد تم اختياره وتقريره له؛ وهو لا يحمل أية أعباء أخلاقية، فهو يتصرف بشكل آلي حسب طبيعته؛ وطبيعته لا خير فيها ولا شر ولا قلق ولا أسئلة كبرى. إن هذا الإنسان الآلي هو تطوّر طبيعي للإنسان الطبيعي/المادي لا يختلف عنه في الجوهر. فمن خلال العمل اكتسبت اليد البشرية هذه الدرجة الرفيعة من الإتقان الذي استطاعت من خلاله أن تنتج لوحات روفائيل، وموسيقى باجانييني". ولكن الإنسان ليس مجرد وظائف بيولوجية. والنمو البيولوجي وحده، حتى لو امتد إلى أبد الآبدين، وهو إنسان غير طبيعي/مادي يحوي داخله عناصر (ربانية) متجاوزة لقوانين الحركة (التي تسري على الإنسان والحيوانات) ومتجاوزة للنظام الطبيعي/المادي. وهذه العناصر هي التي تشكل جوهر الإنسان والسمة الإنسانية لإنسانيته وتفصله عن بقية الكائنات وتُميّزه كإنسان. أما الإنسان الطبيعي فهو الإنسان الذي لا يحوي جوهر إنسانياً (ولذا فهو يمتزج بسهولة مع الكائنات الطبيعية ويتصف بصفاتهما). فهو تعبير عن النزعة الجينية والرغبة في فقدان الذات والحدود. أما النشاطات الأخرى (مثل الدين والفن) فهي ليست من سمات الإنسان الطبيعي وإنما من سمات الإنسان الإنسان، قلق يسأل أسئلة كلية، يحمل عبء الهوية والمسئولية الخلقية، لا يمكن اختزاله في صيغ رياضية كمية كما لا يمكن رده في كليته إلى عالم الطبيعة/المادة وواحديته المادية، الإنسان الاقتصادي والإنسان الجسماني (الجنسي) 1 - الإنسان الاقتصادي: إنسان آدم سميث الذي تحركه الدوافع الاقتصادية والرغبة في تحقيق الربح والثروة، وإنسان ماركس المحكوم بعلاقات الإنتاج. وهو يعبر عن مبدأ المنفعة بحيث لا يعرف الإنسان سوى صالحه الاقتصادي، ولذا فهو إنسان يتسم بالتقشف والإنتاج وحب التراكم. إنسان لا ينتمي إلى حضارة بعينها وإنما ينتمي إلى عالم الاقتصاد العام، وهو يجيد نشاطاً واحداً هو البيع والشراء، ويُشار إلى هذا الإنسان

في النظم الرأسمالية بأنه «دافع ضرائب»، أما في النظم الاشتراكية فيمكن أن يكون «بطل الإنتاج». 2 - الإنسان الجسماني أو الجنسي: إنسان فرويد وبافلوف الذي تحركه دوافعه الجنسية وغدده وجهازه العصبي. إن الإنسان الطبيعي هو نفسه الإنسان الاقتصادي، ولو أننا وضعنا كلمة «اقتصاد» أو كلمة «جنس» بدلاً من كلمة «طبيعة» لظل كل شيء على ما هو عليه ولما غيرنا شيئاً من خطابنا.